أخلاق المسيرة الحسينية

العلّامة الشهيد الشيخ نمر باقر النمر*

الإمام الحسين عليه السلام هو وارث الأنبياء جميعاً؛ من آدم عليه السلام إلى جدّه المصطفى رسول الله صلّى الله عليه وآله. لذا، فإنّ الآيات القرآنية التي تخاطب رسول الله صلّى الله عليه وآله وتبيّن سجاياه وخصاله تشمل الإمام الحسين عليه السلام.

فالخُلق العظيم، والرحمة والرأفة النبويّان قد ورثهما سيّد الشهداء صلوات الله عليه عن جدّه رسول الله ﷺ. وهذه الأخلاق النبويّة تجسدت في ثورته ونهضته وصراعه مع أعدائه. وفي مثل تلك اللحظات تبرز أهمية الأخلاق. فالحرب عبارة عن حياة أو موت، لذلك يستخدم الإنسان في الحروب كل ما يمتلك من قدرات، وإمكانات، وأسلحة للانقضاض على عدوه والقضاء عليه، ولا يلتزم بأخلاق، ولا بدين، ولا بقِيم؛ وهو ما نلاحظه في التاريخ، أو في الواقع المعاصر.

تأمّلوا كيف تعامل أعداء الإمام الحسين معه، وكيف تعامل هو عليه السلام مع أعدائه.

عندما التقى الإمام الحسين بالجيش الذي كانت مهمته الحؤول دون دخوله إلى الكوفة، كانوا على مشارف الموت من العطش، لكنّ الإمام الحسين سقاهم من الماء الذي معه، بل حتّى رشّف خيول الجيش الذي جاء لمنعه وقتله إذا اضطرّوا لذلك كما أمرهم ابن زياد. نعم، سقى الإمام الحسين جيش الحرّ الرياحي وخيلهم مع علمه بشديد حاجته إلى الماء. فعل ذلك، لكي يُعلِّم البشرية جمعاء درساً في أخلاقيات الحروب لا يُنسى أبداً.

وهكذا كان منهج مسلم بن عقيل في الكوفة: لم يغدر، ولم يخدع، بل التزم أخلاق النبيّ وأمير المؤمنين والحسنين سلام الله عليهم أجمعين. هكذا كانوا يتعاملون مع الناس، يعفون عمّن ظلمهم، كان العفو سجيّتهم. طبيعة مترسّخة وراسخة في سلوك الحسين سلام الله عليه، وأهل بيته، والرسول قبل ذلك هو المعلّم لهم جميعاً.

لاحظوا الفارق! كم هي الهوّة بين مَن يسقي خيول أعدائه من الظمأ، وبين مَن يمنع الماء عن الطفل الرضيع، فضلاً عن سيّد الشهداء، وهو الأَولى بشرب الماء من الجميع.

هذه الأخلاقيات انتهجها الإمام الحسين لكي تكون نموذجاً لنا في جميع المجالات. إذا كانت الحرب، وهي أعقد المجالات، لا بدّ أن ترتكز على الأخلاق، فبطريقٍ أولى أن تكون الأخلاق ركيزة المجالات الأخرى أيضاً.

أزمة الأخلاق في العالم المعاصر

مشكلة البشرية اليوم تكمن في انعدام روح الأخلاق. الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية منشأها التنكُّر للأخلاق والقِيَم. نظرية ميكيافلي في السياسة، ونظرية رأس المال في الاقتصاد. والحصيلة أنّ اثنين بالمائة من سكان العالم يمتلكون ثمانين بالمائة من موارده عن طريق: الاستغلال، والاحتكار، والكذب.

الولايات المتحدة هي دولة رأس المال التي تبحث عن الرفاه على حساب شعوب العالم أجمع، مع ذلك ترى أن الفقر المدقع يعشعش في أحشائها، وينتج عن ذلك تفشّي الجريمة في أرجائها. وهكذا في المجال الاجتماعي: يروّجون للترفيه على حساب الآخرين؛ فتُهتك الأعراض وتشيع أخلاقيات الفسق والفجور بغرض التسلية.

هذا هو حال البشرية اليوم؛ شريعة الغاب، القويّ يأكل الضعيف، وصراع مِنْ أجل البقاء، الكلّ ينهب، ويعتدي،

* المقال مختصر عن محاضرة لسماحته، ألقاها في شهر محرّم من العام ١٤٢٢ هجرية

لكي يبقى ويعيش. لأجل ذلك، لا بدّ من إعادة النظر في أخلاقيات هذه الأمّة، وإحياء الأخلاقيات التي أسّس لها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارمَ الأخلاق**». ولا يخفى أن أصل هذه المكارم هو التوحيد، لكن السلوكيات أيضاً منها.

النهضة الحسينية مشروع أخلاقي

المسيرة الحسينية انطلقت من أجل الأخلاق، وبنيانها أساسُه الأخلاق، لكي يأمن الضعفاء، وتشيع الفضائل الرادعة على الصعد كافة. حتى مع الأعداء، كما فعل الإمام الحسين عليه السلام، حذّرهم وأنذرهم، خطابٌ تلو خطاب، لكنه لم يبدأهم بحرب. كان بإمكانه عليه السلام أن يُجعجع بجيش الحرّ ويفنيه عن بكرة أبيه، وأن يُبيد كلّ قوة تأتيه قبل اكتمال جمْعهم، لكنه لم يبدأهم بقتال؛ لأن المعيار ليس النصر الظاهري، وإنما النصر الحقيقي على منهاج أمير المؤمنين الإمام عليّ، والإمام الحسن عليهما السلام.

من أهداف المسيرة الحسينية إيقاظ الناس وتعريفهم إلى أخلاقيات الإسلام، وتحذيرهم من الطرف الآخر الذي تنعدم فيه الأخلاق، وما يترتّب على ذلك من فساد المجتمعات وانهيارها. ولهذا خاطب من قبلُ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الأمّة بقوله: «**فأيمُ الله لا ترون فرجاً أبداً مع بني أميّة، واللهِ ليَسومونكم سوءَ العذاب**...». وكان كما حذّر عليه السلام، فهدم الأمويون الكعبة، ورموها بالمنجنيق، واستباحوا مدينة رسول الله ثلاثة أيام متتالية.

لقد تمكّن الإمام الحسين عليه السلام بأخلاقه النبوية، وبأخلاقيات ثورته أن يحرّك شيئاً في ضمير الأمّة النائم. ولذلك يتوجّب علينا نحن أيضاً أن نقتبس تلك الأخلاق، فتكون أساس تصرفاتنا وسلوكياتنا؛ في البيت، في العمل، في الحرب، في السِّلم، في الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع، ومع الأصدقاء، وحتى مع الأعداء.

هذه هي أخلاقيات الشيعة وأتباع أهل البيت عليهم السلام. أنتم سمعتم حينما تمكّن «حزب الله» في جنوب لبنان من دحر الجيش الصهيوني، كان هناك عملاء لبنانيون ساعدوا الصهاينة في عدوانهم، فكيف كانت أخلاقيات أولئك المجاهدين في التعامل مع العملاء؟ كانت مستمدّة من أخلاق الحسين عليه السلام، ومن عناوينها أنّ الأسير يُعامَل بإنصاف. فإذا كنا حسينيّين حقاً، يجب أن نلتزم بوصية الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**كونوا دعاةً لنا بغير ألسنتكم**» «**كونوا زَيناً لنا، ولا تكونوا شَيناً علينا**». فلنَتحلّ بالرحمة، والعاطفة، واللّين، وحبّ الهداية لأعدائنا. اللّهم إلّا المعاند الذي طُبع على قلبه.

الالتزام بأخلاق سيّد الشهداء، هو تخلّقٌ بأخلاق السماء، وهذا وحده كفيلٌ بنشر رسالة الإمام الحسين عليه السلام في جميع مناحي الحياة.

الآيات القرآنية التي تخاطب رسول الله ﷺ وتبيّن سجاياه وخصاله تشمل الإمام الحسين سلام الله عليه

مشكلة البشرية اليوم تكمن في انعدام روح الأخلاق؛ فالأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية منشأها التنكُّر للفضائل والقِيَم

شخصية التاريخ المقدّس
محمّدٌ صلّى اللّه عليه وآله إنسانُ الكلمة

جاك لانغاد*

ثمّة مقاربة للضِّمنيّ في القرآن عن الكلمة، تكمن في أن نتساءل عمّا قيل -وعمّا لم يُقَل- عن محمّدٍ (صلّى الله عليه وآله)! وتفرض نفسها على وجه السرعة معاينةً مزدوجة.

المعاينة الأولى: أنّ «**محمّداً ذو حضورٍ كلّي**». وليس ذلك لأنّه هو الذي أعلن الكلمة المُنزلة فحسب؛ بل لأنّه يقوم على الغالب، داخل هذه الكلمة، بدور الناطق بلسان المتكلّم: ﴿قُلْ..﴾، و يدخلُ الإيعاز «الطلب / الأمر» باستمرار قولاً موضوعاً على لسان محمّدٍ (صلّى الله عليه وآله)، ويتكرّر ٣٣٢ مرّة في القرآن.

إنّه يؤدي أيضاً دور مَن تتوجّه إليه الكلمة الواجب نقلُها، وذلك منذ هذه البداية الموضوعة في ظلّ آية الإعلان: ﴿اقْرَأْ..﴾. [العلق:١]

أضف إلى ذلك، أنّ الإنذار والتبشير «**وظيفتان متعيّنتان**»، ومَعنيان يتكرّران بصور متواترة في القرآن، كما في: [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، [هود: ١٢]، و[الإسراء: ١٠٥]..

والمعاينة الثانية: أنّ «**محمّداً**» غير مسمّى إلاّ قليلاً جداً في القرآن، إنّ اسمه لا يتكرّر إلاّ أربع مرّات، وكلّ مرّة في علاقة بوظيفته النبوية: [الفتح:٢٩]، [الأحزاب: ٤٠]، [آل عمران: ١٤٤]، و[محمّد: ٢]. وثمّة مرّة خامسة، سيكون محمّدٌ (صلّى الله عليه وآله) مسمّى، ولكن هذه المرّة باسم: أحمد: [الصف: ٦].

إنه الأكثر جدارة بالمديح من كلّ الأنبياء، ولكنْ على الرغم من ذلك، فإنّ كلّ ما سبق لا يقول لنا شيئاً محدّداً عن «**محمّدٍ الإنسان**»، فلا يصفه لنا إلاّ بوظائفه في خدمة التنزيل، والكلام الإلهيّ. حتى الحديث عن الاتهامات بالشعر، وبالكذب، وبالجنون، وبالكهانة أو السحر، هي خاصّة بهذا الدور في خدمة الكلمة.

وثمّة تُهمتان تطالان تلك الكلمة التي ينقلها: تهمة كاهن، في مناسبتين، وتهمة شاعر. ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٢٩-٣٠].

وحالة الشعراء أكثر إرهافاً، فالجذر (ش ع ر)، بعد أن استُخدم للدلالة على الوبر والشَعر، أصبح علامة معرفة دقيقة ومحدّدة، ولكن القرآن يمنحه بالنسبة لعصره معنى معرفةٍ كاذبة، مستنداً إلى معنى الآية:٢٢٤ من السورة الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾.حيث إنّ الله يعارض تعليم ضربٍ من صناعة الكلام وتِقَنيته بذكر الكلمة ذات الامتياز. ألا يكمن في ذلك رفض الكلمة الدنيوية؟ وإذا كانت الحال على هذا النحو، فإنّ ذلك سيكون ضرباً من السِّمة الإضافية للتأكيد أنّ الكلمة في القرآن هي «**فعلُ**» الله بصورة أساسية، وأنّها إلهية، وأنّ ما يرتبط بها يتدخّل دائماً في السياق الديني للتنزيل.

وما ينجم عن كل ما سبق، يبيّن أهمّية محمّد (صلّى الله عليه وآله) بوصفه إنسان الكلمة. وتحتلّ هذه الكلمة مثل هذا المكان في عمله بحيث أن كل ما قيل لنا عنه: نبيّاً، رسولاً، منذراً، حامل النبأ العظيم، يحيلنا باستمرار إلى هذه الكلمة.

---

* مؤرخ وفيلسوف فرنسي معاصر، والمقال مختصر عن أحد فصول كتابه (من القرآن إلى الفلسفة)، من منشورات وزارة الثقافة السورية سنة ٢٠٠٠م، بترجمة الدكتور وجيه أسعد

إنّه هو ذاته لم يُسمَّ إلاّ قليلاً، وفي كلّ مرّة يسمّى نبياً. وأخيراً، تحيل الاتهامات الموجهة ضده: كالكذب، والكِهانة أو الشعر، والجنون، والسحر في أدنى حد، إلى الكلمة أيضاً.

ولكن كلّ ما قيل للتوّ يبيّن كيف أنّ هذه الكلمة -كلمة محمّد- معروضة بصورة ضمنية على أنّها كلمة إمّحاء الإنسان أمام الله، وخضوع الإنسان للكلمة الإلهية، وأنّها صمتُ الكلمة الإنسانية التدريجي أمام الكلمة المُنزَلة.

وسنلاحظ، من وجهة النظر هذه، ذلك العدد القليل من أسماء الأعلام، والأشخاص، والأماكن أو الأحداث، التي يتضمّنها القرآن، والخاصة بالعصر ذاته الذي كان يعيش فيه النبيّ محمّد، في حين أنّ أولئك الذين لهم علاقة بالتاريخ المقدّس يعودون عوداً متكرراً، مثل: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى (عليهم السلام)... إلخ.

ومن المؤكّد أنّ الإلماعات إلى حوادث معاصرة ليست مفقودة في القرآن، بل هي متواترة فيه. ولكن علينا أن نضيف -بمعزل عن كون هذه المراجع إلماعية ولا تتضمّن تفصيلات ظرفية محدّدة: أنّ هذه المراجع ذات علاقة بحدث خاص، حدث التنزيل. وهو حدثٌ يجعل التاريخ كما يتصوّره المؤرِّخون تأريخاً متعالياً، أكثر من كونها ذات علاقة بالحوادث التاريخية منظورٌ إليها بوصفها كذلك.

كذلك ثمّة عدد من الأسماء الجغرافية، الخاصة في القرآن بالزمن المعاصر لمحمّدٍ (صلّى الله عليه وآله)، لكنها ذات علاقة مباشرة بالتنزيل والشعائر التي ينقلها: كالحجّ.

أضف إلى ذلك أنّ لدينا بعضاً من الإلماعات أكثر وضوحاً، كالتي تشرح بالتدخّل الإلهيّ نصرَ المسلمين في معركة حُنين. ولكن التاريخ المعروض، هنا أيضاً، تابع للتاريخ المقدّس أكثر ممّا هو تابع لتأريخ كتّاب الحوليّات أو للتاريخ بالمعنى الحديث للمصطلح.

وتبقى ثلاثة إلماعات واضحة نسبياً ترافقها أسماء أعلام معاصرة لمحمّدٍ (صلّى الله عليه وآله) ولا ترتدّ إلى تاريخ التنزيل، أي: تاريخه وحده، وهي: رحلتا «قريش»، وموت «أبي لهب» وامرأته، و«زيد بن ثابت» بمناسبة حادثة محدّدة. فإذا استثنينا ذكر هذه الحالات الثلاث، يتحصّل لدينا أنّ «الكلمة القرآنية» كلمة «تُضفي القداسة»، تضع الدنيويّ، لا في التاريخ اليومي والحكائي للناس، ولكنّها تضعه في عَرَضٍ يجعل هذا التاريخ العادي متعالياً حتى تجعل منه تاريخ التدخّل الديني، كلمة تغزو كلّ مجالات الحياة الدنيوية لكي تضعها في المنظور المحدّد لها في التنزيل.

وسيكون -حينئذٍ- إنسانُ الكلمة «**محمّد**» بصورة أساسية، إنساناً في خدمة التدخّل الإلهي في هذا العالم. إنّه ليس إطلاقاً منظّم الحاضرة الأرضية [فحسب] كما كانت هي الحال في الحاضرة الإغريقية، ولكنّه إنسان إضفاء القداسة على الفاعلية الإنسانية، على الفاعلية «المدنية». إنّه ليس فاعلاً في التاريخ، ولكنّه شخصية التاريخ المقدّس...

يصوّر القرآن الكريم النبيّ محمّد (صلّى الله عليه وآله) إنساناً في خدمة التدخّل الإلهي في هذا العالم. إنّه ليس منظّم الحاضرة الأرضية فحسب، ولكنّه إنسان إضفاء القداسة على الفاعلية الإنسانية

أكمل الكائنات عرفاناً وخُلقاً*

محمّد رضا أمين

إنّ عالم الوجود بما يتضمّن هو من فعل الله تعالى، واللهُ هو العلّة وهو مفيض الموجودات، والموجودات هي الفيض وهي المعلول. علاقة العلّة، بالمعلول والمفيض بالفيض هي علاقة وجودية، ولهذا فوجود المعلول وجود مفتقِر، وهو -أي وجود المعلول- عينُ الفقر والحاجة، وليس وجوداً تُعتبر الحاجة والفقر من صفاته. وبما أنّ وجود «فاعل» الوجود هو عين الغنى والاكتفاء، فإنّ وجود المخلوقات مرتبط بكلّيته بالله تعالى، ويسير في الدرب والاتجاه اللّذين حدّدهما له الموجِد.

وطبقاً لهذه القاعدة، فإنّ الفاعل هو المحبّ والفعل هو المحبوب. والفاعل يريد أن يرجع إليه فعله؛ ولذا فتوجُّه الفعل سيكون باتجاه الفاعل، وما دام مبدأ الفعل هو أيضاً الفاعل فسيكون الفعل منه وإليه. والموجودات -التي هي فعلُ الله تعالى، ابتدعها بقدرته واخترعها بمشيئته وبعثها في درب محبّته- تنقسم إلى نوعين:

١- نوع يعتبر «محبوب الله» بدون واسطة.

٢- نوع هو «محبوب الله» بالواسطة.

فالموجود الذي خُلق بدون واسطة هو محبوب لله، وهو أيضاً محبوب له سبحانه بدون واسطة. أمّا الموجودات المخلوقة بواسطة الفيض فهي «محبوب الله» بواسطة. ويحدّثنا أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: «**كان اللهُ ولا شيء معه. فأوّل ما خلَقَ نورَ حبيبِه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم... والحقُّ تبارك وتعالى ينظر إليه ويقول: يا عبدي أنتَ المُرادُ والمُريدُ وأنت خِيَرتي من خلقي، وعزّتي وجلالي لولاكَ لَما خلقتُ الأفلاك، مَن أحبَّكَ أحببتُه..**». [بحار الأنوار: ١٥/ ٢٧]

والفعل -لكونه فعلاً- تلازمه الحاجة. فهو لا يستطيع التخلّف عن فاعله وإرادته، لأنّ الفاعل وصاحب القرار هو الربّ، والمربوب والمخلوق يخضع بكامل وجوده لسلطة الربّ والخالق.

وإذا كان بإمكاننا أن نطلق هنا كلمة «**ميثاق**» فعلينا القول: إنّ تسليم الوجود الممكن للوجود والكمال المطلق -على أساس الفرضية القائلة بأنّ «الممكن» وجود مستقل قبالة الوجود المطلق- يشكّل الميثاق التكويني بين الفعل والفاعل، وهو بحدّ ذاته «فعل» كما في: «**لا يملكون تأخيراً عمّا قدّمَهُم إليه، ولا يَستطيعون تقدُّماً إلى ما أخّرَهُم عنه**». [الدعاء الأوّل في الصحيفة السجادية]

وعلى هذا الأساس فإنّ جميع الموجودات خاضعة لإرادة الله، ومسبّحة بحمده: ﴿..وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ..﴾ والتسبيحُ تنزيه، ونفي لأيّ نقص أو حاجة عن ساحة القدس والكمال الإلهي. فالممكنات التي تسبّح لله تعالى تبرّئه من أيّ نقص أو عيب أو حاجة. وتحسّ أنّ النقص هو في وجودها المرتبط عينياً بوجود الخالق، وعليه فهي بتسبيحها وحمدها ترتقي سلالم الكمال لتنهل من الفيض، وتستغرق في التفكّر بالجمال الأزلي من نافذة العشق والمحبة، وتتولّه في التأمّل بالجمال الأبدي؛ إذ ليس لها من معشوق سوى المبدأ الأعلى، ولا من محبوب إلّا العلّة الأولى...

وأصحاب البصيرة يرون أنّ كلّ مُفيض هو مطلوب حقيقيّ للمُفاض، وكلّ علّة هي محبوب ذاتيّ للمعلول. ولهذا تطلب السفليّات العلويّات، وتطلب الكائنات الإبداعات، والكلّ حسب فطرته وجبلّته يطلب الخير المطلق والمبدأ الأعلى.

على أيّ حال، فإنّ العلاقة الوجودية بين العلّة والمعلول، والمفيض والمُفاض، وتسبيح المخلوق والمربوب للخالق والربّ، تختلف باختلاف مراتب وجود الموجودات، ومراتب الوجود تخضع لقرب وبُعد الموجودات عن المبدأ الأعلى. فأبعد الموجودات علاقته أضعف، وأقربها علاقتُه أكمل وأقوى بالله تعالى. ومن هنا، فإنّ أوّل ارتباط وأوّل ميثاق وأوّل تسبيح هو لأوّل مخلوق؛ أي الأقرب إلى الله والأكمل بين الموجودات في عالم الإمكان. وهذا هو وجود العقل الأوّل، أي نور نبيّ الإسلام محمّدٍ صلّى الله عليه وآله، كما تبيّن.

* مختصر نقلاً عن موقع «البلاغ» الإلكتروني